قراءة في الشعر الجزائري القديم،
بكر بن حماد التاهرتي أنموذجاً

الدكتور: فتحي محمد

جامعة الجيلالي ليابس ـ سيدي بلعباس ـ الجزائر

هدفنا من هذه القراءة إبراز عراقة الأدب الجزائري، بالحضور المتميز لأعلامه واتخذنا بكر بن حماد أنموذجاً لذلك، بغية لفت انتباه أجيال أمتنا لجهود أسلافنا ومآثرهم الحميدة في مجالي الفكر والأدب، بإعادة قراءة تراثنا وفق مقتضيات العصر وتطلعات الأجيال كي لا يتحنط في متاحف النسيان.

الكلمات المفتاحية: ابن حماد، الشاعريّة. تاهرت، الشعر الجزائري القديم، الأدب الجزائري

A reading in ancient Algerian poetry,
Bakr bin Hammad Al-Tahrti as a model

Abstract: Our aim of this reading is to highlight the deep-rootedness of the Algerian literature, with the distinguished presence of its scholars. We have chosen Bakr bin Hammad as a model, to draw the attention of our nation's generation to the efforts of our ancestors and their praiseworthy exploits in the fields of thought and literature, by re-reading our heritage according to the requirements of the age and the aspirations of generation so that it does not become mummified in the museums of oblivion.

Keywords: Ibn Hammad, poetics, Taharat, ancient Algerian poetry, Algerian literature.

تقديم: يقول عثمان الكعاك[1] رحمه الله في كتابه بلاغة العرب في الجزائر: إن العلماء قد اعتنوا بالتنقيب عن اللغة العربية وتاريخها وتطوراتها في مختلف الأصقاع الإسلامية إلا الجزائر، فإنهم أغفلوها، مع أنها قد أخرجت من الأدباء وعشاق البلاغة ورسل الفصاحة والبيان ما يكون لها بهم الفخر وما تسمو به مرتبتها في تاريخ الأدب العربي[2] العام.

يقر الكعاك بعراقة الأدب الجزائري وقدمه، وبالحضور المتميز لأعلامه في الساحة الأدبية بخصوصية أدبهم وفرادته وكفاءتهم، وأبانوا لغيرهم مشرقاً ومغرباً عن واقع الأدب الجزائري.

ألم ينافح أسلافنا غيرهم وسجلوا حضورهم في الساحة الأدبية والنقدية؟ وأبانوا عن نديتهم لنظرائهم من فطاحل الأدب المشرقي الذي نال الحظ الأوفى في الدراسة والاهتمام تدقيقاً وتمحيصا، واستهلك الجهد الجهيد من الطاقات ومن الوقت سنين متتابعات من الباحثين

تاريخ تسليم البحث: 25 أكتوبر 2016.

تاريخ قبول البحث: 13 ماي 2017.

الجزائريين وغيرهم، ألم يحن الوقت لأبنائنا الطلبة وبناتنا الطالبات أن يلتفتوا إلى أدبهم الحافل بذخائر نفيسة وأعلام فذة.

آمل في هؤلاء أن تحدوهم الرغبة في البحث والتنقيب في جذور الأدب الجزائري القديم ومكوناته والنهوض به والتعريف بمبدعيه، وإماطة اللثام عن أعلام هذا الأدب الذي غمره النسيان وتجاهله البعض بقصد أو من دونه، بغية الكشف عن بعض الصفحات المجهولة في هذه المرحلة القديمة من تاريخ أدب أمتنا، الذي تغافلته أقلام الباحثين المشارقة، لعلة الانتماء أو لغاية في نفس يعقوب.

عاش الأدب الجزائري القديم ثنائية الإخفاق والإجادة كغيره من آداب الأمم الأخرى، ولا يخفى على القارئ أنه استفاد من الأدب المشرقي شكلا ومضموناً، وتسربل بوشائج التأثير والتأثر يمنة ويسرة، فجاء الحصاد غنياً متنوعاً يشجع المنصفين على البحث فيه وتذوقه وسبر أغواره، وإعادة النظر في قراءته وفق رؤية تتماهى وطموحات العصر في مزاوجة بين الأصالة والمعاصرة.

غايتنا في هذه الدراسة المتواضعة إعادة بعث حركية الأدب الجزائري القديم والتي نتخذ منها قاعدة تشيد بها الآداب في المستقبل بكل تفرعاتها وتوجهاتها الإبداعية والفنية بقطرنا لبناء صرح أدبي جديد وفق تطلعات أمتنا وخدمة لأجيالنا وتثميناً لجهد أسلافنا الذين غمرهم النسيان وطمرت الظروف ذكر بعضهم ورمتهم في سلة الزمان، لعل من هؤلاء، الفقيه النحرير والمحدث البليغ، والشاعر المجيد، بكر بن حماد فمن يكون؟

نسبه ونشأته: هو أبو عبد الرحمان بكر بن حماد بن سهل (وقيل بن سهر) بن إسماعيل الزناتي أصلا التاهرتي نشأة وداراً ووفاة، ويكنى بأبي عبد الرحمن، ولد حولي عام200هـ تلقى بموطن رأسه دروسه الأولى على

مشاهير علماء مسقط رأسه جلة فقهائه وكبار محدثيه بعد بلوغه السابعة عشرة من عمره غادر مسقط رأسه مولياً وجهه نحو افريقية (تونس) قاصداً المشرق العربي عام (217هـ 832م) وهو في عنفوان الشباب.

نزل القيروان ولم يمكث بها طويلا قرأ بها الفقه والحديث وبقية العلوم التي كانت تلقى حينذاك بمساجدها على يد أكابر العلماء منهم الشيخ عون بن يوسف الخزاعي ت239 هـ، والإمام سحنون بن سعيد التونخي (ت 240) هـ

يذكر ابن حماد في كتاب: "رياض النفوس للمالكي: قوله لما فرغت من قراءة كتبي كلها على عون – وهي كتب ابن وهب[3] قلت له: "يا أبا أحمد كيف كان سماعك عن ابن وهب؟ فقال لي: "والله ما أحب أن يعذب الله أحداً من أمة محمد صلى الله عليه وسلم بسببي بالنار- أبطل الله سعيه وسمعه وصلاته وسائر عمله إن كنت أخذتها من ابن وهب إلا قراءة . قرأت عليه أنا

وقرأ علي ولو كانت إجازة لقلت: إنها إجازة، وقد حضرت ابن وهب وأتاه رجل بكتبه في تلبس فقال له: "يا أبا محمد هذه كتبك"فقال له ابن وهب "صححت وقابلت فقال نعم " فقال له: "اذهب وحدث بها فقد أجزتها لك وقد فعل مثل ذلك[4] "، وجاء في كتاب "طبقات علماء إفريقية "لأبي العربي التميمي بقية هذا الحديث.

نتساءل مع الأستاذ محمد بن رمضان شاوش، هل كانت قراءة بكر على عون؟ قبل ذهابه إلى العراق أو قبل الرجوع منه؟ مع العلم أن عون توفي (239 هـ) ثم يقول إنه أنشد مقطوعة من شعره بالعراق ومصر وتاهرت، والقيروان على سبيل المناقشات الأدبية والمطارحات الشعرية يجتزئ الأستاذ شاوش البيت الأخير: من هذه المقطوعة

يا سبحان من أرسى الرواسي/ وأوتدها على السبع الشداد [5]

هذا ما يدل دلالة بينة على نزول ابن حماد بمصر أيضاً، لكن هل كان ذلك أثناء ذهابه إلى العراق أو بعد إيابه منه، فهذا سؤال لا نجد له جواباً في النصوص التي بين أيدينا[6]، في منظور محمد شاوش

رحلة ابن حماد إلى المشرق وإقامته ببغداد: يبدو أن ابن حماد لم يمكث طويلا بالقيروان، ثم رحل إلى العراق ودخل البصرة والكوفة، ثم استقر بدار الخلافة بغداد، وفيها أخذ الحديث النبوي عن الشيخ عمر بن مرزوق البصري ومسدد بن مصر الأسدي وأبي الحسن البصري وبشر بن حجر وابن الأعرابي وأبي حاتم السجستاني وأنه لقى من علمائها الرياشي وابن الأعرابي وغيرهم من علماء عصره، كما اجتمع بأبدائها وشعرائها منهم: دِعبل الخزاعي (ت220هـ/835م)، السليط اللسان بهجوه لذوي المكانة والرفعة في الدولة العباسية منهم الخليفة المعتصم وأبي تمام حبيب بن أوس (ت 845/231 م) وعلي بن الجهم الخراساني (ت 249 هـ)، ومسلم بن الوليد الملقب بـ صريع الغواني (208/130هـ)، وغيرهم من فحول الشعر العربي.

لاريب أن لقاء ابن حماد بهؤلاء الفحول واحتكاكه بهم، كان له أثره الفعال في تفتيق موهبته الأدبية وقريحته الشعرية، فلقاء الرجال تلقيح لألبابها كما تقول العرب، وقد لا يختلف اثنان في أن شاعرنا حمل معه بعد أوبته من المشرق العربي، شعر هؤلاء الفحول وغيرهم إلى بلاد المغرب العربي عامة وبلده الجزائر بصفة أخص، وكان من أوائل ممن أشاعوا شعر أبي تمام في البيئات الأدبية المغاربية[7]، ونجم عن ذلك تأثير أبي تمام في الحركة الأدبية والشعرية في هذه البلدان بما فيها الأندلس، ومن مظاهر هذا التأثير إقبال المؤدبين على تحفيظ شعر ابن تمام للناشئة، والشعراء على معارضة قصائده، ومن مظاهر هذا التفاعل كان أبو عبد الله التميمي القلعي يسلك في شعره على طريق حبيب بن أوس وصاحبه أبو عبد الله الجزائري

يسلك سلوك المتنبي وكانا يتراسلان الأشعار كل واحد منهما الآخر على طريقته[8]، هذا ما ينبئ عن التفاعل الأدبي بين المشرق والمغرب، وأن الأدب الجزائري، لم يكن في مستوى أقل من نظيره المشرقي كما ذهبت إلى ذلك بعض الأقلام.

وكانت لشاعرنا صلات بخلفاء الدولة العباسية، كالمعتصم الذي تولى الخلافة عام، 227.218هـ (833م) ومدحه ونال عطاياه، وقد تجرأ على هجوه أيضاً على الرغم من صلاته الجزيلة، وهذا شأن شعراء التكسب، مما ينبئ على علو كعبه وذيوع صيته مشرقاً ومغرباً، وكان الشاعر كثير الاتصالات بالملوك والأمراء يمدحهم ويهجوهم كي ينال مبتغاه المادي، كما وصله أمراء الأغالبة والأدارسة على حد سواء، والظاهر أنه طاف بلدان المغرب العربي كله.

عودته إلى المغرب وإقامته بالقيروان للمرة الثانية: يرى شاوش: إن إقامة ابن حماد بالمشرق وخصوصاً بالعراق كانت طويلة جداً، لاختفاء ذكره بالمغرب قبل عام 274 هـ (887م) وهي السنة التي رحل فيها قاسم ابن أصبغ البياني من الأندلس إلى المشرق ولقي بالقيروان شاعرنا التاهرتي وسمع منه حديث مسدد بن مصر الأسدي.

عودة ابن حماد إلى مسقط رأسه: نزل ابن حماد بالقيروان بعد رجوعه من المشرق العربي وقد اكتملت شخصيته وأضحى شهاباً وارياً وشيخاً وقوراً عالماً فقيهاً أديباً شاعراً ألمعياً، فجلس للإقراء في مساجد القيروان، ويبدو أن إقامته بها وبمسقط رأسه كانت مراوحة حسبما ما يقتضه الجو السياسي في العاصمتين ويظهر أن شاعرنا شارك في الفتنة التي وقعت بتاهرت عام 895/282م ضد أبي حاتم الرستمي وأدت إلى إخراج هذا الأخير من عاصمة ملكه فاعتذر إليها ابن حماد بعد رجوعه إليها.

إن أجواء المنافسات غير الشريفة مناخ ملائم لتفريخ الإشاعة والوشاية وكثيراً ما يتعرض لها النزهاء والنابهين، فأحاطت بشاعرنا وشاية، إذ أوقع خصومه بينه وبين الأمير إبراهيم بن أحمد بن الأغلب9 حاكم إفريقيا تونس (261 /289) هـ من أجل ذلك آثرالشاعر الإياب إلى مربع صباه، مصحوباً بابنه عبد الرحمن، ولما بلغا قلعة ابن حماد بولاية المسيلة حالياً القريبة من تاهرت تعرضا لهما قطاع الطرق، فقتلوا ابنه على مرآى من بصره سنة (907/295م) وجرح الشاعر في جسده ونفسه، فظل يعاني آلام ذلك حتى لقي بارئه في مسقط رأسه في شهر شوال من عام (296/ 909م)، عن عمر ناهز ست وتسعين سنة.

شاعريته: لم يترك ابن حماد شعراً وفيراً، بل قدراً ضئيلا في مائة وبضعة أبيات مقصدة ومقطعة، السمة البارزة لدى شاعرنا والتي لا تنقص من شاعريته، لأنه لم يتميز بها وحده، بل نلفيها في الشعر العربي القديم، عند جلة من الشعراء يقول: ابن حمديس في بيت واحد:

وكأنما شمس الظهيرة ناره / وكأنما شجر البسيطة عوده

ومدح الشاعر أبو العباس السمعاني الخليفة الموحدي عبد المؤمن بن علي ببيت واحد فقط، فأثابه عليه بألف دينار.

ما هزَّ عاطفية بين البيض والأُسل / مثل الخليفة عبد المؤمن بن علي

وما جمعه الأستاذ محمد شاوش من شعر ابن حماد في مطبوع وسمه بالدر الوقاد، وهو مشكور على جهوده التي بذلها في جمع بعض أشعار ابن حماد من المصادر التي توفرت له حينها، إلا أن هذا القدر الضئيل في منظورنا لا يعده شاعراً مقلا، فجل شعره في حكم المفقود، وما توفر لا يتناسب مع شاعريته اللوذعية، والتي بوأته الدرجة الرفيعة مع فحول شعراء عصره، ونال بها حظوة الملوك والأمراء مشرقاً ومغرباً، فأسبغوا عليه جزيل عطاياهم، إلا أن شاعريته لم ترتق به ليكون شاعر بلاط ما، وفي كل الأحوال، لم نقطع الأمل في اكتشاف المزيد من شعرا بن حماد، فالمستقبل كشَّاف، ويذكر الباحث بحاز إبراهيم بَكير، أن ديوان شعر بكر بن حماد موجود في تركيا[10]، لكنه لم يشر إلى مكان تواجده، هل هو في مكتبة حكومية أو خاصة أو جامعة أو مركز علمي؟.

يعدّ ابن حماد أول شاعر جزائري يوقع ميلاد الأدب الجزائري على النحو المكتمل وهو في حد ذاته حدث كبير وشأن عظيم[11] في ذاكرة الأمة الجزائرية، فهو الشاهد على مساهمة هذه الأمة في الحضارة العربية الإسلامية، في ميلاده المبكر في عاصمة أول دولة جزائرية، ونبوغه فيها، والتي لم يمض سوى نصف قرن على إنشائها، [12] يدل دلالة قاطعة على تجذر الأدب العربي في الجزائر والبلدان المغاربية قاطبة، عدَّ من أفاضل عظمائها فقهاً وأدباً نثراً ونظماء يقول: رابح بونار: إن هذه الشخصية هي أنبغ شخصية في الشعر الغنائي بالمغرب العربي عامة، ولا نجد نظيرها في عمق تفكيرها وأصالتها البيانية وامتلاكها لموهبة شعرية محترمة إلا في الأندلس التي أنجبت الغزال[13] وابن عبد ربه[14]، ويحق لمؤرخ الأدب في هذا العصر أن يصرح بأن ظهور بكر بن حماد في القرن الثالث...هو أكبر مفخرة للأدب العربي المغربي[15] في عموم بلدانه.

كان لرحلات ابن حماد أثر في صقل موهبته المعرفية وتفتق قريحته الشعرية، فعد من شعراء الطبقة الأولى في عصره[16] مشرقاً ومغرباً، فوقف موقف الندية مع فطاحل الشعر العربي وأعلامه في القرن الثالث الهجري، وهو لم يتجاوز العشرين من عمره[17]، كانت له صلات ودية وأدبية مع أبي تمام ودعبل وصريع الغواني وغيرهم من أنصار البديع والتصنع، إلا أن شاعرنا سلك نهج الشعراء المطبوعين من طلاب المعاني والألفاظ السهلة ولم يلتفت إلى الصور الفنية إلا ما ورد عرضاً في شعره، الواقعي[18] التقريري، وقد يعود ذلك إلى ثقافته الدينية الواسعة.

وإذا كان الشعر يتمثل في شكله ومضمونه وموضوعه، فمن حيث الشكل امتثل ابن حماد تقاليد القصيدة العربية القديمة مبنى ومعنى، ومن حيث الموضوع نظم شاعرنا في

الأغراض التقليدية المختلفة كالوصف والمديح والرثاء والوعظ والزهد، ولعله تأثر في الموضوع الأخير بالشاعر الكبير أبي العتاهية[19] الذي تألق نجمه في البصرة وبغداد وأضحى حديث الخاص قبل العام، وقد تعود هذه النزعة عند ابن حماد لمزاجه النفسي المتشائم وميله الغيبي الموروث من عرقه البربري[20]، وقد يرد الميل الصوفي للشاعر إلى روحه المشبعة بالروح الدينية وإلى كونه من الرعيل الذي حاز المحمدة النبوية إضافة إلى رحلته المشرقية وهو في مقتبل العمر واحتكاكه بفحول الأدب والشعر ونزوله بالقيروان وإقامته بها للتعلم، فاختلط بأناس كانوا عريقين في عروبتهم[21] وعقيدتهم، فولد ذلك آثاراً فعالة في شخصيته وتعريب لسانه خاصة وتضلعه في علوم الشريعة، فاستحق بجدارة لقب الفقيه العارف بالحديث النبوي وأصوله.

إن التكوين الديني المبكر لابن حماد صقل شخصيته ومزاجه النفسي، ونأى عن الاستجابة لحديث النفس وعواطفها، فتهيأت نفسه لهذا اللون الشعري بحكم ثقافته فأعرض عن مواضيع اللهو والمجون والشراب التي كان يمور بها عصره والماثلة في الشعر العربي في كل أطواره، يذكر العماد الأصفهاني في ترجمته لشعراء القرن الخامس الهجري بالمغرب الأوسط، أنه لم يرو بيتاً واحداً في المجون أو الشراب لشعراء العصر حينها في هذا الصقع الغربي للوطن العربي.

ومن لطائف مديح الشاعر رُوي[22] أنه قصَد يوماً الأمير إبراهيم بن أحمد الأغلبي (261 /289هـ (في قصره حاملا إليه بعض مديحه وفق عادته فاعترضه الحاجب قائلا: الأمير مشغول ببعض جواريه وأمر أن لا ينغص عليه مجلسه أحد، فكتب ابن حماد أبياتاً في رقعة وتلطف إلى الحاجب في إيصالها إليه جاء فيها:

خلقن الغواني للرجال بليَّة / فهن مواليا ونحن عبيدُها

إذا ما أردنا الوردَ في غير حينه / أتتنا به في كل حين خدودُها

بعد أن قرأ الأمير البيتين أمر بصرف إليه مائة دينار، نستشف من هذا الحدث أن الشاعر كان يتردد على قصور الملوك والأمراء بغرض التكسب، وأن مراوحته كانت مألوفة لدى هؤلاء، لأنه كان يحترف الشعر لقضاء مآربه، ونسجل أن الأمير الرستمي أبو حاتم بن محمد بن أفلح (281 . 294) هـ عاتبه على مديحه لخصومه الأغالبة دون حكام بلاده، فاسترضاه بمدحة يقول فيها:

أبا حاتم ما كان ما كان بِغضةً / ولكن أتت بعد الأمور أمور

فأكرهني قوم خشيت عقابهم / فداريتهم والدائرة تدور

مدح الشاعر أيضاً، أحمد بن قاسم صاحب مدينة كُرت بضم الكاف بالمغرب الأقصى بقصيدة مظهراً فاقته وحاجته المادية:

إن السماحة والمروءة والندى / جمعوا لأحمد من بني القاسم
وإذا تفاخرت القبائل وانتمت / فافخر بفضل محمد وبفاطم
وبجعفر الطيار في درج العلا / وعلي العضب الحسام الصارم
إني لمشتاق إليك وإنما / يسمو العقاب بقوادم
فابعث إلى بمركب أسمو به/ علي أكون عليك أول قادم
واعلم بأنك لن تنال محبتي / إلا ببعض ملابس ودراهم

الظاهر أن ابن حماد على الرغم من تكوينه الديني، إلا أنه كان هجاء سليط اللسان لم يسلم منه حتى رجالات الدين، نلفيه يهجي الشيخ يحي بن معين (ت 233/ 847 م) وهو أحد المحدثين المرموقين في الحديث النبوي الشريف وأحد مؤسسي نقد رجال الحديث النبوي، أو ما يعرف بـ: علم الجرح والتعديل، لقب ابن حماد الشيخ يحي بالشيطان المريد، أو خبيث المحدثين في قوله:

أرى الخير في الدنيا يقل كثيرهُ / وينقص نقصاً والحديث يزيد
ولابن معين في الرجال مقالةُ / سيسأل عنها والمليكُ شهيد
فإن يكن حقاً قولُه فهو غَيبَة / وإن يك زوراً فالقصاص شديد
وكل شياطين العباد ضعيفة / شيطان أصحاب الحديث مريدُ

نضَّر الله وجه شيخنا يحي بن معين وجزاه الجزاء الأوفى عن الحديث النبوي والمحدثين[23] حاشاه أن يكون شيطاناً، فهذا الوصف تأباه النّفس ويمجّه العقل السليم، إنّها الثنائية الضدية في النفس البشرية الحاملة للفضيلة وضدها الماثلة في قول المنزه عن كل نقيصة (وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ) الشمس الآية 10

وفي رد ابن حماد على هجو الشاعر دِعبل الخزاعي للخليفة العباسي المعتصم نلفيه يحرضه بقوله:

أيهجو أمير المؤمنين ورهطه / ويمشي على الأرض العريضة دِعبل
أما والذي أرسى ثبيرا مكانه / لقد كادت الدنيا لذلك تُزلزَل
ولكن أمير المؤمنين بفضله / يهمُّ فيعفو أو يقول فيفعل

أثرت هذه الأبيات تأثيراً قوياً في نفسية الخليفة المعتصم، وكان وقتها أبو تمام شاعر البلاط الرسمي، فخاطب ابن حماد حين سماعه الأبيات قائلا: لقد قتلته) دعبل) والله يا أبا بكر وعاتبه على ذلك، فقال مجيباً له وتتميماً لما سبق:

وعاتبني فيه حبيبٌ وقال لي / لسانك محذور وسُمك يقتل
وإني وإن صرفت في الشعر منطقي / لأنصف فيما قلتُ فيه وأعدل

نلمس من ذلك ارتباط الأدب المغاربي بنظيره المشرقي، فالعلماء والأدباء والشعراء ينالون من تشجيع الحكام وعطاياهم مثل نظرائهم المشارقة، فالنسيج الحضاري من أرومة

واحدة، أوليس الأدب والشعر أحد جوانب هذا النسيج، والذي يقرأ الشعر[المغاربي] في عمومه يجده أخاً للشعر العربي في بغداد وفي بلاد العرب نفسها من حيث الصفات العامة والموضوعات التي كانت عند القدماء[24] لوحدة المرجعية المعرفية.

ومن جهة أخرى نلفي شاعرنا ابن حماد يستعطف[25] شاعرنا أبا حاتم ويعتذر إليه ليغفر زلته بقوله:

ومؤنسة لي بالعراق تركتها / وغصن شبابي في الغصن نضير
فقالت كما قال النواسي قبلها / عزيز علينا أن نراك يسير
فقالت جفاني يوسف بن محمد / فطال على الليل وهو قصير
أبا حاتم ما كان بغضة / ولكن أنت بعد الأمور أمور
فأكرهني قوم خشيت عقابهم/ فداريتهم والدائرة تدور
وأكرم عفواً يؤثر الناس أمره / إذا ما عفا الإنسان وهو قدير.

ومن رثاء ابن حماد لنظيره دعبل، وأحمد بن خصيب والي مصر:

الموت غادر دعبلا بزويلة / وبأرض برقة أحمد بن خصيب

وفي رد ابن حماد على عمران بن حِطَّان الشاعر الذي أشاد بـ: عبد الرحمن بن ملجم المرادي قاتل علي بن أبي طالب رضي الله عنه نلفيه يقول:

يا ضربة من تقي ما أراد بها / إلا ليبلغ من ذي العرش رضوانا
إني لأذكره يوماً فأحسبُه / أوفى البريَّة عند الله ميزانا[26]

ثارت حمية ابن حماد واستشاط غضباً لمَّا سمع أو قرأ نص من أثنى على قاتل خليفة المسلمين، بعد أكثر من قرن، فهجا ابن ملجم هجاء لاذعاً مشفوعاً بمدح علي رضي الله عنه مشيداً بفضائله[27] وبمنزلته من الرسول الأكرم صلوات الله عليه وسلم، عدَّ المسعودي في مروج الذهب وابن السبكي في طبقات الشافعية الكبرى في الجزء الأول، هذه القصيدة من أحسن القصائد، نجتزئ منها:

قل لابن ملجم والأقدار غالبة / هدمت ويلك للإسلام أركانا
قتلت أفضلَ من يمشي على قدم / وأول الناس إيماناً وإسلاماً
وأعلم الناس بالقرآن ثم بما / سنَّ الرسول لنا شرعاً وتبيانا
صهر النبي ومولاه وناصرُه / أضحت منقبه نوراً وبرهاناً
وكان منه على الرغم الحسود له / مكان هرون من موسى بن عمرانا
ذكرت قاتله والدمع منحدر / فقلت سبحان ربِّ الناس سبحان
أشقى مرادٍ إذا عدت عشائرها/ وأخسر الناس عند الله ميزاناً
يا ضربةً من شقي أرثته لظى / مخلَّداً وأتى الرحمن غضبانا
كعاقر الناقة الأولى التي جلبت /على ثمودٍ بأرض الحجر خُسرانَا

نَستقرئ من النصين أنهما يتماهان في جريمة قتل سياسية بامتياز، ويجسدان العنف المادي الناجم عن الاختلاف الأيديولوجي في تاريخ الإسلام السياسي المغيِّب للحوار، فالفكرة لا تدحض إلا بأختها والحجة لا تواجه إلا بنظيرتها، فعمران بن حِطان يشيد بالجاني ويزكي فعلته الشنيعة التي مزقت الصف الإسلامي شر ممزق وهدمت رمز وحدته بسحقها الخلافة الراشدة، وأشادت عليها الصراع الديني المؤدلج بين المسلمين باعتباره صراعاً أزلياً في ثنائية ضدية مذهبية عقدية سنة وشيعة، وقد نتمثل ذلك في الخطاطة (أ) فلا زالت أوار نار هذه الاختلافات تلتهب بين المذاهب الدينية في انتظار من يخمدها، فلكل قراءته المشبعة بقناعته المعرفية والعقدية، ونتمثل ذلك في هذه الخطاطة.

(أ)

فضيلة # رذيلة.

خلافة راشدة # ملك عضود.

ائتلاف # اختلاف

سنة # شيعة

وحدة # فرقة

ونتمثل دوافع القتل في هذه القراءة المتواضعة في الخطاطة

(ب)

سياسي

القتل: جنسي

عقدي

ونلحظ أن سمة القتل أفرزها اللون الأحمر الدال على الدماء وهي سمة بصرية حاضرة وقرينة مظهرة عِليَّة فعل الموت وكانت العرب تنعته بالموت الأحمر، قال بشأنه ابن القنوع:

ويخترم الأرواح والموت أحمر / بأبيض يتلوه لدى الطعن أزرق[28]

تستدعي القرينة الحاضرة الماثلة في اللون الأحمر نظيرتها الغائبة البادية في اللون الأصفر الذي كسى الملامح الفيزيولوجية للقاتل، ألم يمتقع لونه ويظهر شاحباً مصفراً، كأنه مصاب بمرض اليرقان، أو عليه أعراض ما قبل الموت الناجم عن الخوف القبلي والبعدي من العواقب، وهذه الطرز المزاجية تعزى إلى أبقراط hippocratesحوالي القرن الخامس قبل الميلاد، يصف الخائف عند امتقاع لونه بأنه مستعد للجنون ويكون فيه طمع وحب النفس وغيظ وحب للانتقام، [29] فهذه العلامات التوصيفية غايتها توصيلية، تشعر الآخر بعدوانية

صاحبها، فارتباط اللون الأصفر بالخوف يعد قرينة بصرية، دالة على الجرم ويجسد السمة الغائبة الكامنة في القتل المرتبط بالدم والمقترن باللون الأصفر ومن ذلك نتمثل الخطاطة.

(ج)

القتل اللون الأحمر

اللون الأصفر

وفي قراءتنا السياقية النصية، نلفي أن الجاني عبد الرحمن بن ملجم لم يكن يبتغي إطفاء فتيل التوتر في الساحة السياسية بإزالة علي رضي الله عنه بثقله العقدي والسياسي، بقدر ما كان يطمح إلى تفعيل نواياه الاجتماعية الكامنة في البناء بالمرأة[30] التي اشترطت عليه رأس علي رضي الله عنه مهراً لها، لكن لا ينبغي لنا أن نشخصن فعل القتل في فاعله وفي دوافعه الذاتية.

قد تبدو عملية القتل استفزازية دلالياً، أرخت للاغتيال السياسي في عالمنا العربي، دالة على عمق الاختلاف المذهبي والمؤدلج، فكان ذلك مدخلا إلى التحديث، وهو بمعنى من المعاني، ثورة على الجاهز والنمطي[31] في الحكم، والهادفة إلى دمقرطته وإخراجه من النمذجة الشرعية والعرقية، ومن حيز الاطباق والاغلاق إلى رحابة الاستنطاق لأصول الحكم[32]، وخلخلة المؤتلف وإخراجه إلى فضاء المختلف، وفق بنية معرفية مستحدثة متمحورة في الاختيار الحر للخليفة، غير ملزمة النسب القرشي[33] وفق رؤية الخوارج، ولا يكون ذلك إلا بالثورة والتثوير على ما هو مؤتلف، تلك هي المعالم الخفية لهذا القتل، والتي يمكننا أن نترسمها في الخطاطة البيانية التالية.

اختلاف

اختلاف ثورة

انتصار

أسّس فعل القتل لمذهبية عقدية متضادة، وعلى مسرحها تولدت حركية إبداعية فنية أدبية وشعرية، مساراتها متوازية غير متقاطعة البتة، فلكل فريق أنصاره، فابن حطان أشاد بابن ملجم في قتله لأصفى خلق الله، متبنياً مرجعتيه المعرفية المسقطة للهيبة القدسية للمستهدَف، ومن منظور مؤتلف مع مرجعية الشاعر ابن حطان، نتساءل، ما هي الخلفية المعرفية أو المذهبية، لشاعرنا في هجائه لابن ملجم وثنائه على الخليفة علي رضي الله عنه، هل مرد ذلك حبه لآل البيت رضي الله عنهم، وهذا ما ذهب إليه رابح بونار، معتبراً ابن حماد شيعياً معتدلا متعصباً لمذهبه[34]، غير أننا نلفيه يفصح عن مرجعيته المذهبية التي تبدو مضطربة في

منظورنا، لأن الساحة السياسية والمذهبية التي كان يحياها المغرب العربي في القرن الثالث الهجري كانت تعج بالمذاهب الدينية، وأن شاعرنا يذكر في شعره أنه كان جهمياً[35]:

وللنفس حاجات تروح وتغتدي / ولكن أحاديث الزمان تعوقها

تجهمت خمساً بعد سبعين حجة / ودام غروب الشمس لي وشروقها

يظهر ابن حماد فضل علي رضي الله عنه ومنزلته في آل البيت رضوان الله عنهم، ومكانته في الإسلام، فهو أول صبي اعتنق الإسلام، وابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وصهره، زوج ابنته فاطمة رضي الله عنهم ورافع اللواء يوم بدر، وأبان له عليه الصلاة والسلام عن مقامه منه، قائلا: ياعلي أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبيّ بعدي[36]، يستند في نصّه إلى هذه الشرعية الدينية، التي لا تختلف عن مقام هارون من موسى، والتي دل عليها رب العزة سبحانه في الذكر الحكيم في قوله: فأتيا فرعون فقولا أنا رسولا رب العالمين (سورة طه الآية 10)

هل يوحي النص القرآني أن هارون تبوأ منزلة موسى النبوية وكلف بتبليغ الرسالة مع أخيه، وفق المنطوق اللغوي للآية؟، التي تظهر أهمية هارون في تبليغ الرسالة، والتي لا يؤتمن عليها إلا ذوي القربى، فقوة هارون مستمدة من النور النبوي الماثل في موسى عليه السلام، وهل تبدو منزلة علي رضي الله متساوية في الهرم المحمدي لآل البيت عليهم رضوان رب العالمين مع منزلة هارون؟ مع العلم أنه لم ينص عليها الذكر الحكيم، وقد تترآى لنا هذه المقاربة في هذه الخطاطة:

محمد (ص) هارون

موسى (ص) علي

ومن زاوية أخرى نرى أن نص ابن حماد يتقاطع اجتماعياً مع مشهد أول جريمة قتل في تاريخ الإسلام الاجتماعي بقتل قابيل هابيل من منطلق الغيرة بين الأخوين على الظفر بالمرأة، وأن عبد الرحمن بن ملجم ارتسمت له الرؤيا نفسها، ومن ثمة هل تسوغ لنا القراءة التاريخية القول: أن وراء تصفية كل عظيم امرأة؟ !باعتبارها الإكسير الفعل في بناء الأمم أو هدمها.

ألم تكن ناقة النبي صالح عليه السلام أنثى وولدت من صخرة وهي آية إعجازية، فمعنى الأنثى يغمر مشهد القتل ويتلبسه، للدلالة على أهمية المرأة في تفعيل الأحداث، فاجتمع سادة القوم وكبراؤهم على قتل الناقة، والمشهد نفسه نلفيه يلقي بظلاله على مشهد مقتل علي رضي الله، فالإبقاء على حياته ينغص الجو السياسي للأمة في منظور مدبري الاغتيال (الخوارج)، والمنظور نفسه ينطلي على قوم صالح عليه السلام، فحياة الناقة تبقي الحجة الإعجازية قائمة عليهم ولا مفر من نكرانها، لأن أيادي البطش لا تعتمل العقل، ولا تفكر إلا بإراقة الدماء في

حسم اختلافات دون روية أو تدبر في العواقب، فاهتدى القوم إلى الفاعل (فَنَادَوْا صَاحِبَهُم فَتَعَاطَى فَعَقَر فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظَرِ) سورة القمر الآية، 29، 30، 31.

إثر مقتل الناقة سلط الله العذاب على قوم النبي صالح عليه السلام، وبقتل علي رضي الله عنه تشرذم المسلمون وألحق الله بهم الوهن والهوان، فتفرقت كلمتهم وتشظت قوتهم بإحلالهم حرمة الدماء.

والملاحظ أن تيمة القتل فرضت إيقاعها في هذه المشاهد المطروحة للقراءة، فمرتكزها ديني سياسوي بامتياز، فاستوعبها الشاعران كل في خندقه رايتهما حب الدين ورموزه والذود عنه، فتعددت قراءة المشهد التاريخي الواحد بحمولات ضدية وبفيوضات متعددة المشارب والأهواء إلى حركة تثويريه تبريئية، لازالت تلقي بظلالها على واقعنا المعيش.

وأظهرت جريمة الاغتيال أيضاً أن التشظي السياسي يهتدي ببوصلة التشظي العقدي في ثقافتنا العربية والإسلامية، قبل أن تكون للغرب صولة نتخذه مشذباً نعلق عليه إخفاقاتنا، وهل ثقافتنا شيدت على العنف المبرر دينياً! فابن حِطان وصف ابن ملجم بالورع التقي وبفعلته الشنيعة ينال رضوان الله والوفز بالجنة في منظور شيعته وخطيبته، لأنه أنقذ المسلمين من خلافاتهم السياسية المُعطِّلة لحركة النماء، وابن حماد اعتبر قاتل علي رضي الله عنه شيطاناً يستحق عقاب الله، وهل يستثنى عاقر الناقة وقومه من هذا المآل؟

كان الحراك الشعري لابن حماد يرنو إلى نقد فعل الاغتيال المدان في كل الأعراف والأديان، فكانت مقصديته من مساءلة التاريخ ليس التشنيع بالجاني في منظورنا بقدر التنبيه والتحذير من فعله وعوارضه الوخيمة على المجتمعات السابقة واللاحقة، وإزالة اللثام عن خطورة الفكر المتطرف في الأمة الإسلامية، فابن ملجم يمثل الفضيلة والرذيلة في آن واحد، وكأن الصراع بينهما أزلي سرمدي، ففعلته شكلت حدثاً مفصلياً في تاريخ الإسلام السياسي، فمن الصعوبة بمكان أن تندمل جراحاته، لأن مبرراته تسوغها الثنائية الضدية معرفياً وسياسياً وعقدياً.

ألم يحمل معنى ابن ملجم الخير والشر في الآن نفسه وكذلك ناقة قوم صالح؟ ألم يجعل الله الكون يسبح بحمده آناء الليل وأطراف النهار في ثنائية الأضداد، الليل والنهار، الصيف والشتاء، الحياة والموت، الخير والشر، يبقى علينا أن نتساءل ألم يشكل فعل الاغتيال في المشهد المدروس النواة لهذا المسار في المشهد الكوني برمته، تلك طبيعة الحياة وتحولاتها.

أخيراً لا أحسبني أني وفيت الموضوع حقه، في هذه القراءة المتواضعة، فذلك لم يكن مقصدنا ولا مبتغانا وإنما أردنا أن نساهم في قراءة النص الشعري الجزائري القديم الذي

لازالت تنقصه الدراسة في منظورنا كيف كان مستواها لفتح الطريق للأجيال اللاحقة، ونعتذر سلفاً فيما بدا علينا من ضعف أو تقصير، فإن أصبت فمن الله، وإن أخطأت ذاك جهد المقل.

مراجع البحث وإحالاته:

---

1 عثمان كعاك: باحث ومؤرخ تونسي، توفي بالجزائر في الملتقى العاشر للفكر الإسلامي بعنابة على منصة المحاضرات، في سيتمبر، 1976 .

2 نشر مكتبة العرب، تونس د.ت ص 22.

3 هو أبو محمد عبد الله بن وهب القرشي ولد بالقاهرة عام 197 هـ، 813 م وتلقى دروسه على الإمام مالك بمكة والمدينة، من تآلفيه الموطأ الكبير والموطأ الصغير.

4 محمد بن روضان شاوش: الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد، المطبعة العلوية بمستغانم 1966ص 44، 45

5 محمد رمضان شاوش ص 49.

6 نفسه: ص 46.

7 محمد بن شريفة: أبو تمام وأبو الطيب في أدب المغاربة، بيروت، 1986، ص 36.

8 الغريني: عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة بجاية، تحقيق رابح بونار، الجزائر، ص 98.

9 أقام العباسيون إمارة الأغالبة في المغرب الأدنى متخذين القيروان عاصمة بقيادة إبراهيم بن الأغلب الأديب الشاعر (40 1، 196هـ)، لتكون حاجزاً بينهم وبين الأدارسة في المغرب الأقصى المتطلعين إلى توحيد المغرب والمشرق العربيين تحت قيادتهم، دام ملك الأغالبة (184، 296 هـ)، ينظر إسماعيل بن محمد الرشيد، جلاء الظلام الدامس في موجز المغرب الأقصى إلى عصر محمد الخامس، 1957 ص 30

10 الدولة الرستمية دراسة في الأوضاع الاقتصادية والحياة الفكرية، ص 362.

11 عبد الملك مرتاض: الأدب الجزائري القديم، الجزائر، 2000، ص 138.

12 محمد الأخضر عبد القادر السائحي: بكر بن حماد شاعر المغرب العربي، الجزائر، 2007 ص 9.

13 هو يحي بن حكم، لقب بالغزال لوسامته وجماله 156 / 250 هـ، شاعر من شعراء الأندلس، وله ديوان شعري مطبوع ينظر المطرب من أشعار المغرب.

14 المغرب تاريخه وثقافته، الجزائر، 1981، ص 120

15 رابح بنوار: ص 120.

16 عادل نويها: معجم أعلام الجزائر، 1980، ص 58.

17 محمد الأخضر عبد القادر السائحي: ص 9 .

18 رابح بونار: ص 128.

19 هو أبو إسحاق بن القاسم المعروف بأبي العتاهية، نشأ بالكوفة وسكن بغداد واشتهر في شعره بـ فلسفة الزهد. يعتبر أول من فتح للشعراء باب الوعظ والتزهد في الدنيا والإعراض عنها، وكان ذلك كرد فعل منه، لما شاع بين أدباء وشعراء عصره من تزندق ومجون وشكوك في الدين، فأوقف شعره في أخريات حياته على الزهد، توفي سنة 211 هـ، ينظر وفيات الأعيان ج 1

20 رابح بونار: ص 126.

21 عثمان الكعاك: موجز تاريخ الجزائر ص 209

22 ينظر شوقي ضيف: عصر الدول والإمارات ص 160.

23 ينظر شوقي ضيف: نفسه، ص 160، 161

24 أحمد ضيف: بلاغة العرب في الأندلس، ص 35

25 الاستعطاف فن قديم من فنون الشعر العربي ويعرف بالاعتذار، ويعد النابغة الذبياني أول من فتح هذا الباب في الشعر العربي باعتذاراته للنعمان بن قابوس.

26 المسعودي: مروج الذهب المجلد الأول، بيروت 1982، ص 700.، وللمزيد عن ابن حطان ينظر أخبار الزمان لنفس الكاتب

27 استشهد علي رضي الله عنه سنة 40 هـ ومات قاتله عمران بن حطان سنة 84 هـ، وتوفي بكر بن حمّاد 296هـ

28 العبودي محمد بن ناصر: الرياض، الأمثال العامية في نجد 19794 / ، عن سليمان بن علي: معجم الألوان، الرياض، ص 89

29 دائرة معارف القرن العشرين، ط 3، بيروت، 971، 5 / 522

30 المرأة خارجية المذهب تدعى قطام ابنة الشجنة وكانت رائعة الجمال فاشترطت على ابن ملجم مهراً مقداره ثلاثة آلاف دينار وعبد وقينة ورأس علي رضي الله عنه والفوز بالجنة إن مات !ففوافقها على شروطها، للمزيد ينظر: ابن خلدون، العبر، 4/ 82 1983، ينظر قول الشاعر في تاريخ الخلفاء، لجلال الدين:

فلم أرَ مهراً ساقه ذو سماحةٍ/ كمهر قطامِ من فصيح وأعجم

ثلاثةُ آلاف وعبدٌ وقينةٌ / وضرب علي بالحسام المُصمَّمِ

فلا مهر أعلى من عليٍ وإن غلا / ولا فتْكَ إلا دونَ فتْكَ ابن مُلجَمِ

31 عمر مهيبل: من النسق إلى الذات 87

32 يستند الخوارج في رؤيتهم للحكم إلى مبدأي الحرية والعدل، ويجمعون على جواز الامامة لكل مسلمة عالم بالكتاب والسنة، دون النظر إلى نسبه أو منزلته الاجتماعية، الفكرة التي لا قت رواجاً مشرقاً ومغرباً، وتجمع فرقهم على تكفير عثما وعثمان وأصحاب الجمل وكل من رضي بالتحكيم بين علي ومعاوية رضي الله عنهم أجمعين، ينظر محمود إسماعيل: الخوارج حتى منتصف القرن الرابع الهجري.

33 أحمد أمين: فجر الإسلام ص 258

34 رابح بونار: ص 127

35 الجهمية: فرقة دينية تنسب إلى جهم بن صفوان المجبر

36 من الطبقات الكبرى لابن سعد، العشرة المبشرون بالجنة، ص 192